السنة الخامسة والخمسون وأربع مئة

فيها في يوم الجمعة سابع المُحرَّم وصل السلطان، وعزم الخليفة على لقائه، فاستعفى من ذلك، فأُعفي، فخرج إليه الوزير ابن جَهير من الغد، وتلقَّاه عميدُ الملك، وأوصله إلى السلطان، فخدمه وأدَّى إليه عن الخليفة رسالةً تتضمَّن السرورَ بسلامته وعافيته، والأُنسَ بقُربه، وحمل إليه فَرَجِيَّةً وعمامةً وثياباً وفرساً من مراكبه، فعضد حتى قام، وقبَّل الأرض، وطرح العميد الفَرَجيَّة على كتفيه، ودخل من الغد دار المملكة في زَبْزَبٍ بعثه إليه الخليفة، وكان مرض بأرمية وثَقُل عليه، فشغب العسكر، فأُجلِسَ على مضض، وأدخلَ وجوههم إليه، وأوصى إن حدث به الموت أن يُنصِّبوا مكانه سليمان ابن أخيه داود، وهو حينئذ صغير بأصبهان، والسلطان متزوِّجٌ بوالدته، وأن يرجعوا إلى رأي عميد الملك من غير مخالفةٍ ولا عدولٍ عنه، وقرَّظه[1] ومدحه، فأجابوا بالسمع والطاعة، إلا أردم الحاجب، فإنه قال: ما أخدم[2] أحداً بعدك، وأمضي إلى ألب أرسلان ابن أخيك داود، وأنزل عليه، وسار من وقته إلى خراسان، وكان من رأي عميد الملك ومشورته ليتمَّ له الاستبداد بالأمور، ويستولي على الملك، وقالت الجماعة: قد نزل الثلج وما لنا طاقةٌ بالمسير إلى بغداد، ونريد أن نستقر في بيوتنا. فقال: اذهبوا. وجاء إلى بغداد ومعه عميد الملك، وبرشق الحاجب، والأمير علي بن الملك أبي كاليجار- وأبو كاليجار هزارسب - وبدر بن مهلهل، وغيرهم.

و[فيها] سار [السلطان طُغْرُلْبَك إلى بغداد] فصادفوا عقبةً عظيمة قد طمَّها الثلج، ولا بُدَّ من قَطْعِها، فحُمِلَ السلطانُ في مِحفَّة على أعناق الرجال، ومات معظم الناس والدواب، ولمَّا دخل السلطان[3] بغداد نزل العسكر في الجانب الغربي، وأخرجوا الناس من دورهم، وأوقدوا أخشاب السقوف للبرد العظيم، وتعرَّضوا لحريم الناس، وقطعوا الطرقات، وأخذوا عمائم الناس، وجاء قوم من الأتراك فصعدوا إلى أسطحة حمامات بنهر القراطيس ونهر طابق، فقلعوا الجامات، واطَّلعوا على النساء [منها]،

(١) أي: أثنى عليه.

(٢) في (خ): ما آخذ، والمثبت من (ف).

(٣) في (خ): الناس، والمثبت من باقي النسخ.

ثم نزلوا وهجموا عليهنَّ، وأخذوا مَنْ أرادوا منهنَّ، وخرج الباقون عُراةً إلى الطريق، واجتمع الناس وخلَّصوهنَّ من أيديهم، وجاء عميد الملك إلى دار الخلافة، وخدم عن السلطان، فأوصله [الخليفة] إليه، وخاطبه بالجميل ولاطفه، وأعطاه عِدَّة قطع ثياباً؛ تشريفاً له، وطلب الحمية، وحمل خاتم السلطان وكان ذهباً وفضةً وماساً، وزنُه درهمان وحبتان، وقال: هذه الجهة الكريمة. ولزم مطالباً لها، وبات في الديوان، وتردَّدت رسائلُ إلى الخليفة، فكان الجواب: إنك يا منصور بن محمد كنت تذكر أنَّ الغرضَ من الوصلة التشرُّفُ بها، والذكرُ الجميل لركن الدين فيها، وكُنَّا نقول: إننا ما نمتنع من ذلك إلا خوفاً من المطالبة بالتسليم، وجرى ما قد علمتَه، ثم أخرَجَنا ابنُ المحلبان، وقرَّر معكم قبل العقد ما أخذ به خطَّك، وأنه إن كان يوماً ما طالبه باجتماع كان ذلك في دار الخلافة، ولم يسمِّ لقراح الجهةَ منها، فقال عميد الملك: كلُّ هذا صحيح، والسلطان مقيمٌ عليه، وعازمٌ على الانتقال إلى هذه الدار العزيزة حيث ما استقرَّ، فليُفْرِدْ له ولِحُجَّابه وخواصّه وغلمانه مواضعَ يسكنونها، فما يُمكِنُه بُعْدُهم عنه، وقطع بذلك الجهة، وجرت مراسلاتٌ استقرَّ انتقالُها إلى دار المملكة، وعلى أن لا يخرج من بغداد مع ركن الدين، ولا ينتقل معه في أسفاره، وأحضر قاضي القضاة حتى استحلفه على الاجتهاد في ذلك، وانصرف عميد الملك.

وفي المُحرَّم تُوفِّي سعيد بن مروان صاحب آمد، وكان أخوه نصر بميَّافارقين، ويقال: إنَّ نصراً أخاه اتفق مع أبي الفرج الخازن على أن يسقي سعيداً السُّمَّ، فسقاه، فلمَّا شربه أحسَّ [به]، فقال لأصحابه: اقتلوا هذا الكلب، فقد سقاني السُّمَّ. فقتلوه، ولم يظفر نصر من آمد بطائل، وكان السعيد له ولد صغير اسمه مسكويه، فأجلسوه مكان أبيه، وانحرف أهل البلاد على نصر وسَبُّوه، ونفروا منه.

وفي صفر حَملَ الخليفةُ إلى السلطان مئةَ ألف دينار ومئةً وخمسين ألف درهم وأربعة آلاف ثوب من أجناس مختلفة، وكلُّ ذلك منسوبٌ إلى المهر [مهر بنت الخليفة، ومحسوبٌ منه؛ لأن السلطان خطبها وتزوجها].

وفي ليلة الاثنين خامس عشر صفر زُفَّتِ السيدةُ ابنةُ الخليفة إلى السلطان، ونُصِبَ لها من دجلة إلى دار المملكة سُرادقُ، ودخلت فجلست على سريرٍ مُلبَّسٍ بالذهب،

ودخل السلطان فقبَّل الأرضَ بين يديها، وخدمها، ودعا للخليفة، وخرج من غير أن يجلس، وما قامت له، ولا كشفت البرقع عن وجهها ولا أبصرَتْه، وخرج السلطان إلى صحن الدار والحواشي يرقصون فرحاً، ويغنُّون بالتركية، وبعث إليها مع أرسلان خاتون عقدين فاخرين وخسروانيَّ ذهب، وقطعةَ ياقوت حمراء كبيرة، ودخل من الغد فقبَّل الأرضَ وخدمها، وجلس على سرير فضة مقابلها ساعةً، ثم خرج وأنفذ إليها جواهر مُثمَنةً، وفَرَجيةَ نسيج مكلَّلةً بالحبِّ، ومحبقةً منسوجة بالحَبِّ، ومازال كلَّ يوم يفعل ذلك يخدم ويبعث التحف، وظهر منه سرورٌ عظيم، ومن الخليفة تألمٌ كبير، وخلع السلطانُ في بكرة ذلك اليوم على عميد الملك في دار المملكة، وحمل على فرس بمركب ذهب، وأعطاه سيفاً مُحلًّى، وزاد في ألقابه حيث حصلت [له] الوصلة بسفارته، وخلع على جميع الأمراء والحاشية، وواصل عمل السِّماط أياماً.

وفيها دخل الصُّليحي إلى مكة، واستعمل الجميلَ مع أهلها، وأظهر العدل والإحسان والأمن، وطابت قلوبُ الناس، ورخصت الأسعار، وكثُرت له الأدعية، وكان شاباً أشقرَ اللحية، أزرقَ العينين، وليس باليمن أزرقَ أشقرَ [غيره][1]، وكان متواضعاً، إذا جاز على جَمْعٍ سلَّم عليهم بيده، وكان فَطِناً، قَلَّ أن يُخبِر بشيء إلا ويَصِحَّ، وكسا البيتَ ثيابَ بياض، وردع[2] بني شيبة عن قبيح أفعالهم، وردَّ إلى البيت من الحُليِّ ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون أخذوه لمَّا ملكوا بعد شكَّر، وكانوا قد غيَّروا البيت والميزاب، ودخل البيت ومعه زوجته، ويقال لها: الحُرَّة، وكانت حُرَّةً كاسمها، مدبِّرةً مستوليةً عليه وعلى اليمن، وكان يُخطَبُ لها على المنابر، يُخطَبُ لها بعد المستنصر والصُّليحي، فيقال: اللهمَّ وأدِمْ أيام الحُرَّة الكاملةِ السديدة، كافلةِ أمير المؤمنين. وكانت لها صدقاتٌ كثيرة، وكرَمٌ فائض، وعدلٌ وافر.

وأقام الصُّليحي إلى يوم عاشوراء، وراسله الحسنيُّون، وكانوا قد بَعُدوا عن مكة: اخرُجْ من بلدنا ورتِّبْ منا من نختاره. فرتَّب محمد بن أبي هاشم في الإمارة، ورجع إلى اليمن، ومحمد [بن أبي هاشم] صهر شَكَّر على ابنته، وأمَّره على الجماعة، وأصلح

(١) ما بين حاصرتين من (ف) و(م) و(م١).

(٢) في (م) و(م١): وردَّ.

بين العشائر(١)، واستخدم له العساكر، وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً، وكان الصُّليحي يركب على فرس [له] يُسمى الملك، قيمته ألف دينار، وعلى رأسه مئة وعشرون قصبة ملبَّسة بالذهب والفضة، وإذا ركبت الحرة ركبت في مئتي جاريةٍ مزيَّناتٍ بالحُليِّ والجواهر، وبين يديها الجنائب، بمراكب الذهب المُرصَّعة.

وقيل: إنه أقام بمكة إلى ربيع الأول، فوقع في أصحابه الوباء، فمات منهم سبعُ مئة رجل، ثم عاد إلى اليمن؛ لأن العلويين تجمَّعوا عليه، ولم يبقَ معه(٢) إلا نفر يسير، فسار إلى اليمن، وأقام محمد بن أبي هاشم [بمكة] نائباً عنه، فقصده بنو سليمان الحسنيُّون مع حمزة بن أبي وهَّاس(٣)، فلم يكن لهم به طاقة، فحاربهم، وخرج من مكة، فتبعوه، [فرجع] فضرب واحداً منهم ضربةً بالسيف، فقطع ذراعه وفرسه وجسده، ووصل إلى الأرض، فدُهشوا، ورجعوا عنه، وكان تحته فرس يُسمَّى دنانير، لا يَكِلُّ [ولا يَمَلّ]، وليس له [في] الدنيا نظير(٤)، ومضى إلى وادي الينبع(٥)، وقطع الطريق عن مكة والقافلة، ونهب بنو سليمان مكة، ومنع الصُّليحي الحجَّ من اليمن، فغَلَتِ الأسعار، وزادت البلية.

وفيها ورد الخبر بمسير الأمير ألب أرسلان بن داود من بلخ إلى نيسابور لمَّا كثُرَ الإرجاف بموت السلطان.

وفي يوم الخميس تاسع ربيع الأول حضر عميد الملك إلى ديوان الخليفة، واستأذن للسلطان ولابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة بالمسير إلى الري يستزيرها مدة ستة أشهر، فأذن للسلطان، ولم يأذن لخاتون، وكانت شاكِيةً اطِّراحَهُ لها، فإنه لم يقربها منذ اتصل بها، وخرج السلطان من الغد، وهو عليلٌ ثقيل مأيوس من سلامته، واستصحب معه السيدة ابنة الخليفة بعد امتناعٍ شديد، فغلظ عليها، وألزمها ولم يتبعها

(١) في (خ) و(ف): العساكر، والمثبت من (م) و(م١)، وهو الموافق لما في شفاء الغرام ٢/ ١٩٦.
(٢) في (ف): منهم.
(٣) في (خ) و(ف): هواش، والمثبت من (م) و(م١)، وشفاء الغرام ٢/ ١٩٦.
(٤) في (م) و(م١) وشفاء الغرام: شبيه.
(٥) في (م) و(م١): وادي البقيع، والمثبت موافق لما في شفاء الغرام.

من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة برسم خدمتها، ولحق الخليفةَ ووالدتَها من ذلك أمرٌ عظيم، وأظهر الحزن الكثير، وكان من فعل عميد الملك ووضعه، ومضى هزارسب إلى الأهواز بعد أن أقام على باب السلطان سنتين.

و[فيها] وقع بمصر وباء عظيم كان يخرج [منها] في كل يوم ألف جنازة، وتوفي فيه ابنُ المُدَبَّر الوزير، وكان [ابن المُدَبَّر] قد نظر في وزارة مصر في ربيع الأول.

وفي يوم الأحد عاشر [شهر] ربيع الآخر خُتِنَ الأميرُ عُدَّةُ الدين أبو القاسم.

وفي ليلة الاثنين لخمسٍ بَقِين منه انقضَّ ببغداد كوكبٌ عظيمٌ كبير، وفي صبيحته كان ريحٌ وسحابٌ ورعدٌ وبرق، فلحق قافلةً عظيمةً عند قبر الإمام أحمد رضي الله عنه منه صاعقةٌ أحرقت واحداً منها، ولم يتغيَّر لونُ جلده، وإنما نزعوا قميص المحترق، فوجدوه قد صار هباءً منثوراً.

وفي ربيع الآخر قدم أمير الجيوش بدر إلى دمشق والياً عليها، ونزل بالمِزَّة ومعه القاضي الشريف أبو الحسين بن يحيى بن زيد الحسني الزيدي ناظراً في أعمالها، فأقام بها بدر فلم يستقِمْ له مع أهلها حالٌ، وحاربهم وحاربوه، فهرب منها في رجب سنة سبع وخمسين [وأربع مئة].

وفيها عصى أنوشروان على السلطان وانهزم، فلحقه أيتكين، فأخذه أسيراً، وحمله إلى الري، فقال له: دعني أزور قبر والدتي. فأذِنَ له، فلما دخل استجار بالقبر، وقال: لا أخرج. فلازمه أيتكين، وكتب إلى السلطان وهو بهَمَذان يخبره، فبعث مَنْ قيَّده وأخرجه من التربة، وحمله إلى بعض القلاع، وبينها وبين الري بضعة عشر فرسخاً، فحبسه.

وفيه ورد الأمير أبو القاسم سليمان بن أخي السلطان ووالدته من أصبهان إلى الري، وكان السلطان قد جعل إليه ولاية العهد وأوصى إلى عسكره.

وفيها كانت بين قاروت بك بن داود وبين فضلويه الشونكاري [وقعة][1] على فرسخين من شيراز، وانهزم فضلويه إلى فسا، وكان قد مال إليه طائفةٌ من الديلم، فقتلهم، وغنم أموال فضلويه.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

وكان فضلويه في عشرين ألفاً من الديلم وغيرهم، وكان قاروت بك في أربعة آلاف تركي، وكان الديلم قد حلفوا لقاروت بك وغدروا به، فأسر منهم جماعةً، وسأل القضاةَ والفقهاءَ، وقال: هؤلاء حلفوا لي وغدروا وقصدوا قتلي. فأفتَوه بقتلهم، فضرب رقابهم على نهر يسمى العمري، فكانت دماؤهم فيه مثل الماء تجري. ويقال: كانوا سبع مئة رجل، ونظف البلاد من الديلم، ومضى فضلويه إلى فسا، ولمَّا بلغ الديلم ما فعل قاروت بك مالوا كلُّهم إلى فضلويه وأطاعوه، وكان قاروت بك عادلاً منصفاً جواداً، وكان يخطب للخليفة، وبعده لعمِّه طُغْرُلْبَك، ثم لنفسه.

وفي جمادى الآخرة ورد الخبر بدخول نصر بن مروان آمد وملكه إيَّاها، مضافاً إليها ميَّافارقين.

ذكر السبب:

لمَّا مات سعيد أخو نصر مسموماً أقام أهلُ آمد ابنَه مكانَه، وكان صغيراً، وقام بأمره أبو علي بن البغل القاضي، وخطب له، واستدنى أميراً من الغُزِّ ـ كان بتلك الديار ومعه جماعة ـ إلى آمد، وتقوَّى بهم خوفاً من نصر، فراسل نصر زوجةَ أخيه والدةَ الصبي المتآمر، وأطمعها في تزويجه بها، وبذل لها مالاً، فأجابته، وتوافقا على القبض على القاضي، فدخل القاضي يوماً على ولدها على عادته، فقبضت عليه، ووثب أهلُ البلد إلى دار القاضي ونهبوها، وكان فيها شيء كثير للتجار في الأمصار وودائع، وبعثت إلى نصر، فجاء وقَرُب من آمد، وعلم بَرَّجان أميرُ الغُزِّ، فهرب، فوقع به قوم من بني تميم، فأسروه، وجاء نصر إلى باب الهُوَّة ففُتحت له، وحصل في القصر، وأحضر وجوه البلد وطيَّب قلوبهم، وقرَّر على القاضي نيِّفاً وثلاثين ألف دينار، واعتقله على أدائها، وجاء بنو تميم ببرجان، فابتاعه منهم، وبعث به إلى ماردين فأُرمي من أعلى سورها فهلك.

وفي جمادى الآخرة ورد كتاب من الشرق بأن عميد الملك برز من الريِّ إلى قلعة كَرْدُكُوه يحاصر قُتُلْمِش ابن عم السلطان، وهو الآن مقيمٌ بحيِّها في عشرة آلاف مقاتل غير الحشو والرجَّالة، والقلعة ممتنعة جداً، لا يمكن الوصول إليها إلا بنفاد الزاد والماء، وليس فيها عينٌ، وإنما يشربون من ماء المطر يجتمع في الصهاريج، فإن نفد سلَّموا، وإلَّا فلا سبيل عليها، وكان قد شرع في الصلح وأجاب إلى النزول، غير أنه اقترح اقتراحاتٍ، منها أن السلطان يحلف له بالطلاق على الحفظ والحراسة، وأن لا

يُطالب بجريرة فعله، ومنها أن يتزوج بأخت الأمير سليمان، ومنها أن يُفرد بولاية جليلة، فقيل: أما التوثقة فمبذولة، لكن تشتمل على الأيمان المعهودة، وأما الولاية فيُجاب إليها، وأما التعيين على التزويج والحلف بالطلاق، فمن يتجاسر على السلطان بهذا؟ [فقال قُتُلْمِش: فإن لم تجسروا على السلطان بهذا][١] فكيف أُسلِّم أنا نفسي إليكم بغير توثقة يطيب بها قلبي. فتوقف الأمرُ بهذا السبب، ووردت الأخبار بأنَّ ألب أرسلان بن داود كان يجدد الأراجيف بالسلطان، قد جمع عسكره وجنده ومقدار عسكره الذين في صحبته عشرون ألفاً وعشرة آلاف راجل، وسار طالباً الري، فلمَّا تحقَّق عافيةَ السلطان ووصولَه إلى الري عاد إلى خراسان ولم يُحدِثْ حدَثاً، وكان قد سار في عساكر عظيمة، وهيبة جليلة، وعدل شامل.

وفي شعبان كانت بأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصور وعكا والشام وطرف من الروم زلازلُ عظيمةٌ هدمت الحصون والأسوار.

وفيه نزل محمود بن شبل الدولة بن صالح على حلب، وحَصَرَ عَمَّهُ عطية بها، وقُتِلَ ليلة النصف من شعبان عليها مَنيعٌ بن [مُقلّد بن][٢] كامل بحجر المنجنيق، ورحل محمود عنها ولم يظفر بطائل.

وفي رمضان قُتل محمود بن محمود بن ثِمال الأخرم أميرُ بني خفاجة في سرداب ـ بمكان يُقال له: الجامعين ـ غيلةً، والذي قتله رجب بن مَنيع، كان أميراً قبله، وسليمان ابن أخيه، وكان الأخرم مُطرحاً لأمر بني خفاجة، مُدِلًّا عليهم، مُعرِضاً عنهم، مُتهاوناً بهم، مانعاً لهم عن الغارات، مستقصياً عليهم في الإقطاعات، فلمَّا أدركت الغلات في هذه السنة أنفذ إلى بغداد، فاستدعى نجدةً من العجم استوفى بهم مالَ السلطان المقرَّر عليهم عن سقي الفرات، فأنفذ إليه نحواً من خمسين فارساً، وسار بهم إلى الجامعين، وقرَّر على بني خالد عن نواحيهم نحو ألفي دينار، وأخذ رهائنهم على الوفاء بها، وفعل بالباقين كذلك، فاجتمعوا إلى رجب بن منيع، وقد كان محمود صالَحه واستحلفه ومكَّنه من النزول معه والقُرب، فشكَوا إليه ما يُلاقون، ووافق ذلك

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

(٢) ليس في النسخ وهو في زبدة الحلب في تاريخ حلب ١/ ٥٥ .

ما كان في قلبه، فاستحلف جماعةً منهم، ودخل سليمان ابن أخي رجب معهم، وضمن لهم اغتيالَه، ونزل محمود إلى سردابٍ يتبرَّد فيه، فجاء رجب وسليمان ابن أخيه، فدخل جابرٌ حاجبُ محمود، وكان وافقهم، فعرَّفه بحضورهم، فقال: هذا وقت القيلولة، تقعدون في الخيمة حتى أخرج. فهجموا عليه، فقام وقال: ويلَكم، إنه دمٌ لا يُضاع. ومسكه جابر حتى قتلوه، وقطع سليمانُ رأسَه، وتركه في كمِّه، ودخل على حظيَّة[1] محمود فافترشها قهراً، والرأس يَشْخُبُ دماً في كمِّه، وأخذها إلى قلعة سفانا، وكان يركب الفاحشة، فضجرت منه، وقالت: لا حياة بعد محمود، وألقت بنفسها من أعلى، فهلكت، وهرب بدر بن محمود إلى بغداد، وقُتِلَ صالحُ بن محمود مع أبيه.

وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان توفي السلطان طُغْرُلبك بالري، ووصل [الخبر] إلى بغداد من جهة السيدة ابنة الخليفة في الرابع والعشرين منه، وذكرت أن حاله ثقُلَت، فحُمِلَ من الموضع الذي كان فيه بقصران إلى الري، فلمَّا نزل الدارَ مات، وتولَّت زوجتُه أم سليمان التي كانت زوجة أخيه داود، وفروخ الخاتوني أمره في غسله ودفنه [وكتموا خبره، وسنذكره في ترجمته] فكان بين زفاف السيدة إليه وبين وفاته ستةَ أشهر وثلاثةً وعشرين يوماً.

وفيها كثرت غارات العرب على بغداد حتى أخذوا ثياب الناس من باب بغداد، وقدم رجب بن منيع أمير بني خفاجة فنزل بالنجمي واستُدعي إلى بيت النُّوبة خامس ذي القعدة، فخلع عليه طاق سقلاطون، وفَرَجِيَّةَ ديباج مُذهَبة، وعمامةً بيضاءَ مُذْهَبة، وكتب عهده على ما وليه من سقي الفرات، وعاد إلى بلده، ولمَّا تُوفِّي السلطان كاتب الخليفةُ أصحاب الأطراف مسلم بن قريش أمير العقيليين ودُبيس بن مَزْيَد أمير الأسديين وأبا كاليجار هزارسب وأبا الفتح وأبا النجم ابني ورَّام وبدر بن مهلهل أمراء الأكراد كتباً تتضمن إعلامهم بما يتجدَّد، واستدعاءَهم إلى الباب فيشاوروا فيما يفعل، وخصَّ مسلماً بخُلعةٍ بعث بها إليه، وروسل العميد أبو سعيد القايني، وأشعر بالحال، واستدعى إبراهيم وأمر له ما يعتمده ويعول عليه في تسكين البلاد والخدمة، فرهَّب الحضورَ وقال: قد ظهر من الإشاعة لهذا الخبر وتسريح الركابية إلى أصحاب الأطراف

---

(١) الحظيَّة: المرأة المفضلة على غيرها في المحبَّة. المعجم الوسيط (حظي).

بالاستدعاء إلى ما أوحشني، وقد كان الرأيُ أن يكتم هذا الأمر حتى تَسْلَم البلادُ من الغارات، وتنحسمَ عنها مواد الأطماع، إلى أن يُحكَم تدبيرُها، وأنا فما أحضر إلى الدار العزيزة إلا بعد الأمان الذي أسكن إليه، ومع ذلك فما ورد إليَّ في هذا الأمر ما أُعوِّل عليه، وإذا صحَّ عندي فأنا غلامُ عميد الملك، وإذا ورد إليَّ كتابُه بأمر امتثلتُه، وجمع العجم إليه، وكان نازلاً بقصر عيسى، وابتدأ بعمل سورٍ على بابه يتحصَّن به، وأعدَّ فيه الغلَّات والسلاح، وعبَّأ على السطوح الحصا الذي حرزه في الزواريق من عُكْبَرا، وأطلق يده بالتواقيع للعرب بالنواحي، ولم يقطع ضرب الطبل من دار المملكة، وأظهر قلة الثقة بهذا الخبر، وجلس الوزير ابن جَهير للعزاء في صحن السلام يوم الثلاثاء السادس والعشرين من رمضان.

وفي مثل هذا اليوم كان دخول السلطان بغداد سنة سبع وأربعين وأربع مئة، فكانت مدة ملكه العراق سبعَ سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً، وثقُلَ على الخليفة ما فعله أبو سعيد، وتقدَّم بأن يكتب له الأمان الذي التمسه، وعلَّم عليه بخطِّه، فحضَرَ بعد مخاطبةٍ طويلة، وصعد إلى باب العزبة، وخدم ودعا، وعاد من وقته، ولم يحضر موضع التعزية، وخدم، فطرح أصحابه الخلع على الملَّاحين سروراً بسلامته، وتقدَّم إلى الخطباء من الديوان بقطع خطبة السلطان، فقُطعت يوم الجمعة لليلةٍ بقيت من رمضان.

وفي شوال قتل سليمان قاتل الأخرم، وكان قد اعترض قافلةً شاميةً وطلب منها خفارةً، فمنعه ابن بطن الحق الكعبي، وقال: هذه خفارة أبي وجدِّي. وتنازعا، فضربه بحربة، وقتله، وهرب بنو كعب خوفاً من رجب بن منيع، فقال رجب: أنا ولي هذا الدم، وقد وهبتُه. وكان بين قتل محمود وسليمان أقلَّ من شهر.

وفيه ورد الخبر بوفاة السلطان، ولا بُدَّ من الاجتماع ليُقرِّر ما يفعل، فسار صدقةُ إلى الأهواز، فلمَّا حصل في دار هزارسب قبض عليه واعتقله، وكان الليث بن صدقة في بعض الطريق ومعه معظم خزانة أبيه، فهرب ودخل بغداد بعد أن نزل على دُبيس، ونزل الخرابة في الحِلَّة، وسأل الديوان، فكاتبه هزارسب في معنى أبيه والتلطُّفِ في خلاصه، فكُتِبَتْ له الكتب، وكُتب إلى أبي عبد الله المردوسي ـ وكان عند دُبيس ـ بالمُضيِّ إلى هزارسب في هذا المعنى، فعاد وقال: أولينا لنحقِّق الأمر.

وفي يوم السبت منتصف شوال وكل بالعميد القايني في دار الخلافة.

ذكر السبب:

كان مكاشفاً للخليفة، مُطَّرِحاً أمرَه، ولمَّا مات السلطان لم يُقلِعْ عن ذلك، وأدخل يده في الإقطاعات والأسباب الخليفتية، وتوقع منه الرجوع فلم يفعل، وطُولِعَ الخليفةُ بأنَّ عنده من الارتفاع جملة، ودخل رجل من بني عقيل، فاستجار بحريم الطاهري، فبعث وأخذه وكان معه مال، فأرسل إليه الخليفة: قد كنتَ تنظر في هذا البلد من قِبَلِ مَلِكٍ مضى لسبيله، فإما أن ترفع يدك وتسكن آمناً، وإلا فاخرج من هذا البلد. فدافعَ وغالطَ، وأقام في الديوان من ينظر في البلد، وهرب العجم إلى دار العميد، فأحضر الخليفةُ القضاةَ والفقهاءَ، وأرسل إليهم: ما تقولون فيمن عصى الإمام، ومرق عن طاعته، وأبدى صفحة مخالفته؟ فأفتَوا بقتاله وجهاده، وبلغه ذلك، وشاع انحلال أمر عميد الملك، فأرسل يعتذر، واستقرَّ أن يحضر بيت النُّوبة ليحلف عن ما حصل في يده من الارتفاع، ويرجع إلى داره بحريم الخلافة لعمل الحساب، وأحيط بالسور الذي عمله، وحفظوه من الهرب، فخاف، فعبر إلى بيت النُّوبة، واستحلفه قاضي القضاة، فأقرَّ بثلاثين ألف دينار وست مئة كُرٍّ غلَّةً، فقال القاضي: أين هذا المال؟ حاضرٌ أم مفرَّقٌ في السواد؟ ففطن، فقال: مُفرَّق. فقال: إذا أحضرتَه شهدنا عليك. وطالبَه أقوامٌ بأموال، فاعتُقل حتى تحرَّر أمرُه. وقيل: إنه قيل له: امْضِ إلى دارك بدرب الدواب، واعمل الحساب. فخاف، وقال: ما أخرج من هذه الدار العزيزة. وطُولِعَ الخليفةُ، فقال: يكون في الديوان، ومعه خادم وجماعة، ثم قُرِىء على المنابر توقيعٌ من الخليفة برفع الضرائب والمكوس، وكُتِبَ على أبواب الجوامع.

ذِكْرُ ما جرى في أصحاب الأطراف:

قد ذكرنا أنَّ الخليفة كاتبهم بالاستدعاء، وخَصَّ مسلمَ بنَ قريش بخِلعة، فوصل إلى تكريت، ورام أعذار العرب معه، فلم يفعلوا، وطلب كلٌّ منهم مُناه، وأطمع جماعةً منهم، فاتَّبعوه، وراسل أبا علي بن موسك وأبا الحسن بن عيسكان بن غيمي الأكرادَ بأرض إرْبِل وبلادها، وموَّه عليهما، وقال: إنني منحدرٌ إلى بغداد، وإنَّ الخليفة يُؤمِّرني على العراق، ويستنيبني في البلاد. ولبس الخلعة المنفذة إليه بالموصل، فعبر

إليه، وانحدر في جملته، واتَّفق أنَّ الوزير ابنَ جَهير وجد غلامين لمسلم من الغُزِّ، ومعهما ملطفات إلى الغُزِّ والعجم الذين ببغداد، وإلى الرمش الحاجب يعدهم بالمال والبلاد، فقبض عليهما، وكان مسلم قد بعث أخاه إبراهيم إلى أوانا يستخرج ارتفاعها، فجهَّز الوزير الرمشَ في مئتي غلام، ومحمد بن منصور ومهاوش بن مجلي في نحو خمسين فارساً إلى أوانا للإيقاع بأخي مسلم، وبلغه، فانهزم، وكوتب للأطراف بالمبادرة، فأمَّا ابنا ورَّام فقَدِما في عدةٍ قوية، ونزلا ظاهر الحريم، وتوقَّف دُبيس، ثم قدم، وراسل مسلمٌ والي تكريت بتسليم القلعة، فقال: حتى يخرج الشتاء؛ فإنَّ طريق خراسان لا ينسلك اليوم من الثلج. فحاصره، فكبسه في الليل، وقتل جماعةً من أصحابه، وأخذ خيلَهم، وأخذ فرساً لمسلم يُعرف ببيت العرجاء كان وُعِدَ به، وعاد إلى القلعة، وانتشرت البوادي في السواد، وأرجف بأن مسلماً يدخل بغداد ويجلس في دار المملكة، ويحاصر دار الخليفة وينهبها، فانزعج الخليفة والناس، وعبر الرمشُ الحاجبُ والغُزُّ والغلمانُ إلى الحاجب الغربي، وخلَعَ الخليفةُ على العرب والترك، وبذل المال، وورد كتاب هزارسب إلى الأهواز يذكر أنه يخدم الخليفة بمئة ألف دينار إن وُسِمَ بميسم الملك، فكتب إليه: هذا الأمر لا يمكن إلَّا في السلجوقية، ويجب أن تتشاغل بقاروت بك الذي هو بقُربك ـ وقد استولى على البلاد ـ حتى تدفعه، ويكون لك بعد ذلك حديث. وكان قاروت بك قد كتب إليه يأمره بالدخولِ في طاعته، وإقامةِ الخطبة والسِّكَّةِ له بخوزستان والبصرة، وتلك النواحي، ويتهدَّده إن لم يفعل، وجاءت رسل مسلم إلى الديوان برسالة مضمونها: ما أعلمُ سببَ هذه الجموع والعساكر والخِلَع وإنفاق الأموال، فإن كان لأجلي فما شققتُ عصاً، ولا خرجتُ عن طاعة، ولا انحدرتُ إلا بكتبك أيها الوزير واستدعائك وإنفاذك إليَّ الخلعة، وإني لبستُها بالموصل متشرفاً بها، فلما انحدرتُ وقربتُ من الخدمة ذمَّيتَ أفعالي، وقبَّحتَ أحوالي، وجمعتَ العساكر عليَّ، فإن كان قُربي قد كُرِه فأنتم استدعيتموني وما لي ذنبٌ في ورودي، وأما تصرُّفي في البلاد فما فعلتُ منكراً، هذه بنو أسد بلادُهم ما زالَتْ في أيديهم مدةَ أيام السلطان طُغْرُلْبَك، وقد استجدُّوا اليد في أعمال واسط، وكذا بدر بن مهلهل وهزارسب وابن ورَّام ـ وعدَّدَ أمراء الأطراف ـ وأما نحن جماعةَ بني عقيل فما

زِلْنا في أيام السلطان مدفوعين، عن[١] إقطاعاتنا خائفين، وغيرُنا يأكل بلادنا، من غير أن حدَّثْنا نفوسَنا باستضافة ما لم يكن لنا، فإن دفعتموني عمَّا كان لآبائي وأجدادي، فمن بُغِيَ عليه لينصُرنَّه الله، وإن أُجريتُ بجري غيري فليرجع كلُّ واحدٍ من هؤلاء الأمراء إلى مكانه، وإني جارٍ في الطاعة مجراهم، وخادمُ الدار العزيزة. فثَقُلَ على دُبَيس والجماعة قولُه؛ لكونه تعرَّض لما مدُّوا أيديهم إليه، وطالعوا الخليفة، فكان الجواب: لو كان باطنُ ما أورده كظاهره ما أُنكِرَ عليه، ولكنه قد أبطن العصيان، وظهرت أماراتُ الفساد منه، ومالَهُ عندنا جوابٌ عن رسالة، ولا ها هنا غيرُ دفعه ومحاربته.

وتقدَّم إلى الجماعة بدفعه عن هذه البلاد والعبور إلى النجمي والنزول على الرملة، فأجابوا بالسمع والطاعة، وأرسلوا إلى أعمالهم يحشدون الرجال من العرب والديلم وغيرهم، وقال الوزير للمرسل: قد جئتم برسالة ظاهرها الطاعة، وأفعالُكم تنافيها، وما كُوتِبْتُم إلا كما كُوتِبَ غيرُكم، ولتكونوا في الخدمة طائعين، وقد ظهر منكم ضدُّ ذلك، فإن كنتم صادقين فابعثوا بعبس بن عيسى، فإنه وجهُ عشيرتكم، ومُقدَّمُ أمرائكم، لنقرِّر معه قاعدةً يجري الأمرُ عليها.

وبينما الناسُ على هذا وصل مسلم إلى أجمة الريادة، وهي على ثلاثة فراسخ من بغداد، فعبر الحاجب ودُبيس وبنو ورَّام وبدر بن مهلهل والغلمان إلى الجانب الغربي، ونزلوا بالنجمي وباب الشام وباب التبن، وجاء بعبس من عند مسلم، فأورد ما أورده الرسل أولاً، وقال: أنا على الطاعة إن أُعطيتُ... أماكن سمَّاها استوعبَتِ العراق، فأُعطي بعضَها، فلم يقنع، وعاد إليه رسولُه، واختلفت الأمراء على الخليفة، وتقدم إلى دُبَيس بتولِّي حربه، فامتنع وقال: أحتاج إلى صاحب [جيش][٢] يندبه الخليفة معي، تسيرُ الجماعةُ تحت رايته، ويكون معه من المال ما يعطيه لمن يبينُ بين يديه، وورد ولد دُبَيس من واسط، ومعه جماعةٌ من العرب الأسدية والديلم والأتراك الواسطية والبغدادية، وورد رجب بن مَنيع في جماعة من بني خفاجة ومن بلد بدر بن

(١) في (ف): في.

(٢) ما بين حاصرتين من (ف).

مهلهل، وأُقيمت له الإقامات، وأُعطوا المالَ والخِلَع، وطابت قلوبُهم، وندب لهم من خدم الخليفة موفق الخادم الخاص، وضُرِبَتْ له النُّوبة بالنجمي، وعقد له الخليفة لواء أبيض بيده، وفيه كتائب سود، ولقَّبه أمينَ الدولة، وسار في خدمة الأتراك والأمراء المذكورين والعساكر، فخيَّم بقطيعة الدقيق، وثار العوام، وطلب أهلُ كلِّ محلَّةٍ منجوقاً يقاتلون بين يديه، وغلقوا الأسواق، ولبسوا السلاح، ودقُّوا بالدبادب، وواصلوا الخروج إلى العسكر، وجاء جماعةٌ من العرب إلى بعض القرى، وعلم بهم العسكر، فخرج إليهم جماعةٌ فقتلوا منهم جماعة، وأخذوا خيلهم، وجاء رسول مسلم يعتذر ويقول: أنا العبد الجاني، ومهما أُمِرتُ به امتثلتُه من غير مخالفة ولا مراجعة، وجرى ما انتهى إلى من يخرج إليه، ويتوسَّط الحال، ويقرر القواعد التي يزول معها الخلاف.

وفيها وردت الأخبار من الري أن عميد الملك طالب السيدة بنت الخليفة بالجواهر التي كانت للسلطان عندها، وذكر لها قيمةً عظيمةً، فأنكرت أن يكون عندها شيء، فأدخل يدَه في إقطاعها هناك.

وفيها ثار أهل هَمَذان على العميد، فقتلوه وقتلوا معه جماعةً سبعَ مئة رجل من أصحاب السلطان والشِّحْنة(١)، وجلسوا يشربون الخمر على القتلى، ويضربون بالطبول مدةً، ويؤمِّرون من شاؤوا، وذلك لمَّا صحَّ عندهم أن السلطان مات.

وفيها قصد قُتُلْمِش الريَّ ومعه خمسون ألفاً من التركمان، فدفعه عميد الملك عنها.

وفيها تُوفِّي

السلطان طُغْرُلْبَك(٢)

واسمه محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أبو طالب، [وقد ذكرنا طرفاً من أخباره]، قدم بغداد سنة سبع وأربعين، وخلع عليه القائم، وخاطبه بملك المشرق والمغرب، وهو أول ملوك السلجوقية، وهو الذي بنى لهم الدولة، وردَّ ملك بني العباس بعد أن

---

(١) الشِّحْنة: لفظٌ كان يطلق على رئيس الشرطة، ثم أصبح يطلق على قوة الشرطة في المدينة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: ٢٦٩ .

(٢) ينظر السير ١٨/ ١٠٨ .

استولى البساسيري على القائم وأخرجه إلى الحديثة، وكان شجاعاً جواداً حليماً، عصى[١] عليه جماعةٌ، فعفا عنهم ولم يؤاخذهم، وكتب بعضُ خواصِّه إلى أبي كاليجار ابن بويه كتاباً يذكر فيه سوء سيرته فوقَّع على الكتاب، ولم يقُلْ شيئاً، وكان عميد الملك قد استولى عليه، وتُوفِّي بالري يوم الجمعة ثامن رمضان، وكانت مدة ملكه خمساً وعشرين سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وعمره سبعون سنة، وقيل: جاوز الثمانين، [وقيل: في عشر الثمانين] والأول أصح.

قال عميد الملك: قال لي السلطان: رأيتُ في منامي كأني رُفِعتُ إلى السماء وأنا في ضباب، لا أدري ولا أبصر ساعةً، وإني أَشَمُّ رائحة الطيب، فنُوديتُ: أنتَ بقرب الباري عزَّ وجلَّ، فسَلْ حوائجك، فقلت في نفسي: ما من شيء أحبُّ إليَّ من طول العمر، فقيل لي: تعيش سبعين سنة، وانتبهتُ. قال عميد الملك: فجلستُ فحسبتُ عمره، وإذا به سبعون سنة. وكانت قد توالت عليه أمراض مختلفة، وواصلته حمى ملازمة، وأخرى مناوبة، وما كان يحتمي، ولا يشرب دواءً، فآل به الأمر إلى سقوط القوة، فكان يرعف دائماً، فحُمِلَ من المخيم إلى دار السلطنة في مِحفَّةٍ فمات بها [في التاريخ المذكور] فغسَّلَتْه زوجتُه أم سليمان، وفرُّوخ الخادم، وكفَّنته ودفنته.

وكان عميد الملك يحاصر قُتُلْمِش في قلعة كَرْدكوه، فأرسلوا إليه، وأقام الناس يوم السبت والأحد وهم يظنون أنه في عافية، والأمور على حالها، والطبل يُضرَبُ على رأسه[٢]، واستحلف ابنابجيل الحُجَّاب والخليفاتية ومن كان عنده لسليمان بن داود الذي نصَّ عليه السلطان، وكنيته أبو القاسم، ولقبه مشيد الدولة، وسار الرسول إلى عميد العراق آخر نهار الجمعة، ووصل إليه يوم الاثنين ضحوةً، والمسافة نيِّفٌ وستون فرسخاً، فجمع العساكر وغيرهم، وعرَّفهم الخبر، وقال: أنتم تعلمون أني وإياكم عند ذلك السلطان، وقد مضى لسبيله، وكان عهد إليَّ وإليكم في معنى ولد أخيه، وأنا قانعٌ بثوبٍ ألبسه، وفرسٍ أركبه، وأعيش فيما بينكم، فإن ساعدتموني فعلتُ معكم ما يوفي

(١) في (م) و(م١): بغى، والمثبت موافق لما في النجوم الزاهرة ٥/ ٧٣.

(٢) في (م) و(م١): عادته.

obeikandl.com

على أعمالكم وآمالكم. فقالوا: نحن عبيدك، وجميعُ ما تدبِّره فما نخرج عنه. فجمع ما في العسكرين من مال ودوابَّ وثيابٍ وغيره، فأعطاهم إيَّاه، حتى الدَّواة التي كانت بين يديه، ولم يُبْقِ له سوى فرسٍ يركبه، وسار إلى الري، وهم معه، فوصلها يوم السبت سادس عشر رمضان، ودخل دار السلطنة، وجاء إلى المكان الذي فيه تابوت السلطان، فبكى وحزن حزناً كبيراً، وأراد الأمراءُ والحُجَّاب تمزيقَ ثيابهم، فقال: قد فات وقتُه، والصواب التشاغلُ بغيره، وأجلس سليمانَ على التخت، وجدَّد له الأيمان، وحطَّ من القلعة سبع مئة ألف دينار وستة عشرة ألف ثوب من الأنواع، وسلاحاً يساوي مئتي ألف دينار، وفرَّق الكلَّ، فدعوا له وشكروه، وقال لهم: ما ثَمَّ مَنْ يُخاف من منازعته إلا ألب أرسلان صاحب خراسان، وأنا أراسله وأقول: قد عرفتَ ما كان من وصية السلطان في مُضيِّ الأمير سليمان، وهو منك وإليك، وبضعة من جسمك، فإن طمحت إلى البلاد، فقد انحلَّ من الأعمال ما يوازي هذه البلاد ـ مثل خُوارَزم ونيسابور وغيرها ـ فهو لك، وإن كنت تريد المال فنحن نبعث إليك من هذه القلعة ما ترضى به، ونقيم الدعوة لك بعد سليمان، وتجتمع الكلمة، وتكون الدعوتان واحدة، والبلادُ محروسة، والدماءُ محقونة، وإن أبيتَ وحاولتَ غيرَ ما رتبه السلطان فقد أعذرنا، ونحن نقصدك قبل أن تقصدنا، ويحكم الله بيننا وبينك.

وقيل: إن عميد الملك كتب كتاباً بخطِّه إلى ألب أرسلان أبرق فيه وأرعد، وخوَّف وهدَّد، فكان سبباً لمنيته، وكان السلطان قد اعتقل أنوشروان ابن امرأته في قلعة الري، فلمَّا قويَ مرضُ السلطان عاهده والي القلعة أن يُطلِقَه إن حدث بالسلطان حَدَث، فلما مات السلطان طالبه بما وعده به، فلم يفعل، وكتب إلى عميد الملك بسببه، فخاف عميدُ الملك منه، فلم يأذَنْ بإطلاقه، وكان في عقل أنوشروان لُوثةٌ، فاستدعى الموالي، وجلسا يلعبان بالشطرنج في الحجرة التي هو معتقَلٌ فيها، فوثب عليه فقتله، وثار أهل القلعة، وأحاطوا بالحجرة، فخاف على الجارية التي كانت له وكان يُحبُّها، فقال لها: اطَّلعي من هذه الرَّوزنة إلى الصحراء، وانظري من تحت القلعة. فاطَّلعت، فدفعها ورمى بها إلى الأرض لتهلك قبله، فدخل الريح في ثوبها، فحملها إلى ناحية

الجبل، فانكسرَتْ يدُها، وسلِمَتْ نفسُها، ثم رمى بنفسه بعدها فتقطَّع، وحُمِلَ في تابوت فدُفن عند أمه، وسار ألب أرسلان من خراسان يريد الري، وسار أخوه سليمان إلى شيراز، وأقام عميد الملك الخطبة لألب أرسلان في ذي القعدة، وبعث رسلاً إليه بالطاعة، وجاء قُتلْمِش فحاصر الريَّ وقاتلوه، وكان في خمسين ألفاً من التركمان، فنهبوا الضياع، وسبوا النساء وقتلوا، وجاءهم الخبر بأنَّ ألب أرسلان قد قَرُب من الري وتقدَّمت مُقدِّماته، فسار قُتُلْمِش يطلبها، وأدركه السلطان، فانهزم قُتُلْمِش، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

[وذكر محمد بن الصابىء أنه ظهر من أمر السلطان في نزول زُحَل بُرجَ الأسد، وانتفت وفاته في مثل ذلك، فكانت مدة ملكه ثلاثين سنة. قال: فأمَّا عمره فلم يكن محققاً، إلا أني سمعت فيه أقوالاً كثيرةَ الاختلاف فيها، ووقع الإجماع من طريق الظنِّ والتقدير على أنه في عشر الثمانين. وحكى قصة المنام، وأنه لمَّا قيل له: أنت بقُرب الجبَّار فسل لحاجةٍ تُقضى. فقال: أتمنَّى طول العمر. فقيل له: تعيش سبعين سنة. فقلت: ما تكفيني. فقيل: سبعين سنة. وانتبهت، فقيل ذلك ثلاث دفعات. قال الوزير: فسألتُه عن مولده، فقال: في السنة التي خرج فيها الجانُّ الفلاني بما وراء النهر، فحسبتُها فكانت سبعين سنةً كاملة.

وفيها تُوفِّي]

مسلم بن إبراهيم(١)

أبو الفضل، السَّلْمي، البزاز، ويُعرف بالشويطر [ذكره الحافظ ابن عساكر، وقال: سمع الخطيب وغيره، وروى عنه أبو الوحش الضرير] ومن شعره: [من البسيط]

مـا فـي زمـانِـكَ مَـنْ تـرجـو مـودَّتَـهُ ... ولا صـديـقٌ إذا خـان الـزمـانُ وفـى
فـعِـشْ وحـيـداً ولا تـركَـنْ إلـى أحـدٍ ... فـقـد نـصـحـتُـكَ فـيـمـا قـلـتُـهُ وكـفـى

---

(١) تاريخ دمشق ٥٨/ ٧٢.